الغزالى وعلم النفس

للاستاذ حمدى الحسينى

الادراك

تبين مما سقناه فى المقال السابق أن الامام الغزالى رحمه الله قد حاول أن يفهم طبيعة العقل وكنهه . فعجز عن فهم هذه الطبيعة وإدراك هذا الكنه . « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » فلجأ إلى آثار العقل ومظاهره أو معانيه وصفاته . فوفق فى فهم هذا كل التوفيق وأدرك من صفات العقل ومعانيه ما جاء موافقا كل الموافقة لما وصل إليه علم النفس الحديث فى هذا الموضوع ؛ فقد أدرك الامام الغزالى ببصيرته النيرة ان فى الإنسان استعدادا للفهم، وان هذا الاستعداد غريزى فطرى، وانه كالنور الذى يُقذف فى القلب فيعين صاحبه على إدراك الأشياء ، ثم راح يقسم هذا الإدراك للاشياء أقساما اعتبرها أجزاء العقل أو صفاته ومعانيه ، فكان موفقاً أيضاً غاية التوفيق فى ذلك التقسيم الدقيق الذى شمل المعرفة العقلية من أبسط أنواعها الغريزية إلى أرق درجاتها الفكرية . ثم أدرك الغزالى أن العقل وحدة تشمل خبرة الانسان الماضية والحاضرة وميوله النفسية الموروثة والمكتسبة وتتجلى هذه الوحدة العجيبة فى الادراك والوجدان والنزوع التى هى مظاهر الشعور وعناصره البسيطة .

ولهذا رأيناه يتحدث فى الجزء الأول من أحياء علوم الدين عن العلم والعقل فى قسم واحد مما دلنا دلالة تامة على أنه كان رحمه الله مدركا ما قرره علم النفس الحديث من وحدة العقل الشاملة لخبرة الانسان الماضية والحاضرة وميوله النفسية الموروثة والمكتسبة وأن هذه الوحدة تتجلى فى مظاهر الشعور الثلاثة وهى الإدراك أو ما سماه هو (العلم) والوجدان وهو ما سماه (الحال) والنزوع وهو ما سماه (العمل) .

ولندع الآن هذا ولنأخذ الجزء الأول من احياء علوم الدين فنقلب صفحاته فنعرف لأول وهلة انه كتاب فى علم النفس والتربية والتعليم . إذ أكثر الكتب النفسية والتربوية الحديثة يفتتحها أصحابها بتمهيدات فى معنى العلم وأغراضه ، ومواضيع العلوم وغاياتها وأقسامها وأسمائها، وتعريف للنفس أو العقل أو الروح، وتقسيم للشعور واللاشعور ، وتحديد للغرائز والميول وتبيين للسلوك وأنواعه العادية والشاذة ، وما يتبع هذا من المواضيع النفسية ، فنرى الغزالى رحمه الله يبدأ كتابه الاحياء بالتحدث عن العلم والعقل والعقائد ، ثم يسترسل فى مواضيعه الاسلامية المرتكزة على تلك المعرفة النفسية الواسعة المستمدة من تأمله الذاتى العميق وملاحظته الخارجية الدقيقة. وهانحن نراه يتحدث عن العلم فى سبعة فصول يذكر فيها فضل العلم والتعلم والتعليم ويذكر أسماء العلوم ومواضيعها ، وآداب المعلم والمتعلم وآفات العلم والعلماء والعقل وفضله وأقسامه وما جاء فيه من الأخبار

ولنصغ إليه الآن وهو يتحدث عن فضيلة العلم ، مندفعا بالمعرفة الغزيرة والايمان القوى والعاطفة المشبوبة : « اعلم أن الشىء النفيس المرغوب فيه ينقسم إلى ما يطلب لغيره وإلى مايطلب لذاته وإلى ما يطلب لغيره ولذاته جميعاً . فما يطلب لذاته أشرف وأفضل مما يطلب لغيره . وبهذا الاعتبار إذا نظرت إلى العلم رأيته لذيذاً فى نفسه فيكون مطلوباً لذاته ، ووجدته وسيلة إلى الآخرة وسعادتها وذريعة إلى القرب من الله تعالى ولا يتوصل إليه إلا به . وأعظم الأشياء رتبة فى حق الآدمى السعادة الأبدية وأفضل الأشياء ما هو وسيلة إليها، ولن يتوصل إليها إلا بالعلم والعمل، ولا يتوصل إلى العمل إلا بالعلم؛ فأصل السعادة فى الدنيا والآخرة هو العلم فهو إذن أفضل الأعمال . »

يستمر الامام الجليل مندفعاً فى تبيين فضائل العلم وتفاوت هذه الفضائل بالنسبة لخير الناس عامة وسعادة المسلمين فى الدنيا والآخرة بصورة خاصة . ونحن نلمح هنا فى هذا القول الذى سطره قلم الغزالى عن فضيلة العلم أن الغزالى يشير إلى وحدة الشعور والعملية العقلية إشارة واضحة صريحة . يقول ان يتوصل إلى السعادة إلا بالعلم والعمل ، فالعلم والعمل هما المظهران الأساسيان للشعور الانسانى؛ أما العاطفة فهى ما نجده فى نفسك من لذة أو ألم

يصحب الادراك والنزوع أو العلم والعمل. وهو يؤكد هذا المعنى فيما بعد بقوله الواضح الصريح « ان العلم ينقسم إلى علم مكاشفة وعلم معاملة والمعاملة، التى كلف العبد العاقل البالغ العمل بها ثلاثة: اعتقاد وفعل وترك وهو يعنى بالاعتقاد العلم الأكيد الذى لا شك فيه . ويعنى بالفعل والترك النزوع الايجابى والنزوع السلبى ، وما يسميه علم النفس الحديث (بالتوفيق والكف) . وكأن الغزالى أراد أن يزيد هذا المعنى وضوحاً وتوكيداً، فقال فى موضوع آخر : لا يستطاع العمل إلا باليقين ، ولا يعمل المرء إلا بقدر يقينه ، ولا ينقص عامل حتى ينقص يقينه » . أما علم المكاشفة الذى ذكره الغزالى فهو وحى العقل الباطن وإلهام اللاشعور . ولنسمع الآن ما يقوله الغزالى فى هذا الموضوع :

« أعلم أن العلم قسمان ، علم مكاشفة وعلم معاملة . أما علم المكاشفة فهو علم الباطن وذلك غاية العلوم ، وهو علم الصديقين والمقربين وهو عبارة عن نور يظهر فى القلب عند تطهيره وتزكيته من صفاته المذمومة ويتكشف من ذلك النور أمور كثيرة كان يسمع من قبل أسماءها فيتوهم لها معانى مجملة غير متضحة ، فتضح إذا ذاك حتى تحصل المعرفة الحقيقية » ثم يقول : « ونعنى بعلم المكاشفة ان يرتفع الغطاء حتى تتضح جلية الحق فى الأمور اتضاحا يجرى مجرى العيان الذى لا يشك فيه وهذا ممكن فى جوهر الانسان » .

وما دمنا نتحدث عن رأى الغزالى فى العلم كجزء من العملية العقلية فقد وجب علينا أن نتحدث عن العقيدة والايمان واليقين فى نظر الغزالى لأنها أنواع من العلم تتخذ أشكالا خاصة فى النفوس البشرية ، وتولد فيها عواطف قوية تدفع بأصحابها إلى أعظم الأعمال ، وتعينهم على تحمل أفدح الآلام . ولنسمع الآن ما يقوله الغزالى فى هذا الموضوع الجليل : « أعلم أن اليقين لفظ مشترك يطلقه فريقان لمعنيين مختلفين أما النظار والمتكلمون فيعبرون به عن عدم الشك . إذ ميل النفس إلى التصديق بالشىء له أربع مقامات .

(الأول) أن يعتدل التصديق والتكذيب ويعبر عنه بالشك .

(الثانى) أن تميل نفسك إلى أحد الأمرين مع الشعور بإمكان نقيضه ولكنه امكان لا يمنع ترجيح الأول وهذه الحالة تسمى ظناً .

(والثالث) أن تميل النفس إلى التصديق بالشىء بحيث يغلب عليها ولا يخطر بالبال غيره ، ولو خطر بالبال تأبى النفس عن قبوله ولكن ليس ذلك مع معرفة محققة ، إذ لو أحسن صاحب هذا المقام التأمل والأصغاء إلى الشكاك والتجويز، اتسعت نفسه للتجويز وهذا يسمى اعتقاداً مقارباً لليقين . (والرابع) المعرفة الحقيقية الحاصلة بطريق البرهان الذى لا يشك فيه . فإذا امتنع وجود الشك وامكانه يسمى يقينا . وأما الفقهاء والمتصوفة فلا يلتفتون فى اليقين إلى التجويز والشك بل إلى استيلائه على العقل، فمهما مالت النفس إلى التصديق بشىء وغلب ذلك على القلب واستولى عليه حتى صار هو المتحكم والمتصرف فى النفس بالتجويز والمنع سمى ذلك يقينا » . ولنسمع أيضا ما يقوله الغزالى فى الايحاء الذى يتكون به الاعتقاد واليقين : أعلم أن ما ذكرناه فى تربية العقيدة ينبغى أن يقدم إلى الصبى فى أول نشوئه ليحفظه حفظا، ثم لا يزال ينكشف له معناه فى كبره شيئاً فشيئاً . فابتدأوا الحفظ ثم الفهم ثم الاعتقاد والايقان والتصديق به . وذلك مما يفعل فى الصبى بغير برهان .

نقف الان قليلا فنستعرض ما مر بنا من أقوال الغزالى استعراضاً سريعاً لنرى فيها نظريات نفسية معتبرة وقواعد علمية مقررة ، نرى أحسن وصف لمعانى العقل وصفاته وأحسن تقسيم لهذه المعانى والصفات، نرى وصفاً دقيقاً للعقل الباطن والعقل الواعى والوحدة العقلية ومظاهر الشعور الانسانى . ويدهشنا حقاً أن نرى هذه المعرفة الزاخرة بأسرار العقل الباطن التى أوصلت الغزالى إلى أدق ما وصل إليه العلم الحديث عن الاستهواء الذاتى والخارجى، وهو اليقين الذى يستولى على القلب، وما هذا اليقين الذى يستولى على القلب إلا ما يسميه علم النفس الحديث بانقسام الشخصية أى انفصال الآراء والذكريات والعواطف والمعارضة للفكرة الموحى بها ووقوفها موقفاً سلبياً فى حين أن الاراء والانفعالات المؤيدة هى التى تكون بارزة فى الشعور ومتخذة موقفاً إيجابياً.

محمد العسيلى